فلسطين من وقت إلى آخر: ملاحظات حول التاريخ الشفوي

د. فؤاد مغربي

مؤخّراً، علّق أحد الزّملاء الأجانب ممّن لا يمكن التّشكيك بالتزامهم تجاه القضيّة الفلسطينية متسائلاً «لماذا يستحوذ على الفلسطينيين هاجس العام 1948؟ ألا يمكنهم المُضيّ قدماً والانشغال أكثر بمستقبلهم؟». كثيراً ما يسمع المرء مثل هذه التعليقات، وهي في بعض الحالات، كما في حالة زميلي هذا، تتسّم بصدق النيّة حتى وإن جانبها الصواب إلى حدّ بعيد. وهو ما لا ينطبق على أولئك الذين لا يرجون في الواقع أيّ خير للفلسطينيين، وإنْ زعم بعضهم أنّه يؤيّد السلام. يذكّرني هذا الأمر بالخلاف الجوهريّ ذي الدّلالة الذي برز فجأة خلال أحد اللقاءات الحواريّة بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين في مطلع الثمانينيات. ففي ذلك الوقت، اقترح أحدهم إصدار وثيقة مشتركة تحدّد نقاط توافق جوهرية كأساس لمقترح اتفاق سلام جديد. وقد أحرز هذا المشروع تقدماً جيداً لكنّه انهار فجأة حينَ أصرّ النّشطاء الإسرائيليون ببساطة –ومعظمهم ليبراليون صهاينة صادقون ربّما في رغبتهم في السلام– على وضع مسألة ما حصل في العام 1948 جانباً والمضيّ قدماً، محاججين بأنّ الإقامة في التاريخ سوف تورّطنا في جدالات وجدالات مضادّة، وتحرفنا عن المهمّة الأكثر جوهريّة وإلحاحاً في عمليّة صنع السلام. أمّا الفلسطينيّون، فقد أصرّوا، من جانبهم، على أنّ التاريخ مسألة بالغة الأهميّة، وعليه فإنّه ينبغي البدء، على الأقلّ، بالعام 1948، إن لم يكن بما قبل ذلك، من أجل التحقّق من قضيتيّ المسؤولية والذنب قبل المضيّ إلى ما هو أبعد.

وللمفارقة، فإنّ أولئك الليبراليين الصهاينة، مثلهم مثل أبناء جلدتهم الأكثر محافظة، يكرّسون جهداً وموارد هائلة من أجل التذكير بالهولوكوست، وهم منشغلون، إن لم نقل مهووسون، بالتاريخ اليهودي. إنّ ضحايا الاعتداءات الجماعية مثل المعتقلين اليابانيين–الأمريكان، والأفروأمريكان المستعبدين، والأرمن، وسكان أمريكا الأصليّين، من بين آخرين، ينخرطون في طقوس الذاكرة الخاصّة بهم، ويسعون إلى توثيق تاريخهم. وباستثناء الفلسطينيّين، فإن «هذه الجماعات المتضرّرة قد حظيت كلّها بتفهّم الغرب واحترامه. يقال، على نحو ما، إنّ تجريد إسرائيل للفلسطينيين من ملكياتهم، وتجريدهم من إنسانيّتهم لا يدانيان لعنة الهولوكوست، ولهذا فإنّ إسرائيل تُعفى من المعايير الأخلاقيّة التي تُطبّق على الآخرين. ويتُوقع من الفلسطينيين، بناء على ذلك، أن يتجرّعوا مصيرهم المرّ وأن يمضوا إلى الأمام».

على أنّ للتاريخ، مع هذا، قدراً بالغاً من الأهميّة. ولكن أيّ نوع من التّاريخ؟ بالتأكيد، إنّه ليس التاريخ الذي كتبه المنتصرون، ولا هو، بالقدر نفسه من التأكيد، التاريخ الذي كتبته نخبة معيّنة لخدمة مصالحها الذاتيّة. إنّني أتحدّث عن الذاكرة التاريخيّة، ذاكرة البشر العاديّين في نضالهم اليوميّ من أجل البقاء، وهو ما يسميه البعض التاريخ من القاع. إنّ لِفهم ما حدث في نكبة العام 1948 أهميّةً بالغةً لا تقلّ عن أهميّة فهم ما أدى إلى وقوع الهولوكوست، وذلك للأسباب الأساسيّة ذاتها. فلا يمكن للمرء ببساطة أن يخصّ مجموعة بعينها بالحقّ في امتلاك ذاكرة تاريخية، في الوقت الذي ينكر هذا الحقّ على الآخرين. وينبغي لعبارة «لا يمكن تكرار ما حدث» (Never Again)، أن تحكم الدافع العميق الذي يقود الدراسات التاريخية حول الهولوكوست، وأن تُطبّق بالقدر ذاته على ما جرى في العام 1948.

لقد بُني المنطق الأساس للاستعمار الصهيوني في فلسطين، دائماً –متماثلاً في ذلك إلى حدّ بعيد مع المشاريع الاستعماريّة الأخرى– على ضرورة محو تاريخ السكان الأصليّين، واستبدال سرديتّه التاريخيّة به، بحيث يصبح من يتذكّر وما يتذكّره مقترنين بعلاقة

السلطة بين المستعمر وساكن البلاد الأصليّ. يستخدم المنتصرون سلطتهم لكتابة نسختهم الخاصة من التاريخ، وينتجون أساطيرهم الخاصة بهم في ما يتعلق، مثلاً، بالكيفيّة التي هجر بها اللاجئون الفلسطينيّون بيوتَهم، والسبب وراء ذلك. وهذا يشمل، أيضاً، إعادة تسمية القرى والشوارع وغيرها من المواقع أو حتّى الادّعاء بأن مطبخ السكان الأصليّين ومأكولاتهم تخصّ الآن المستوطنين الجدد: وهكذا يتحدث عدد غير قليل من الطّهاة في العالم بصورة عاديّة عن الحمّص والفلافل "الإسرائيليّين"؛ بل إنّه يُمكن للمرء أن يعثر على "كسكس" إسرائيلي في كوستكو. قبل بضع سنوات، اصطحبني أحد زملائي من جامعة بيرزيت ليُريني أرضه وبيت عائلته القديم قرب رام الله. كانت العائلة تمتلك معصرة زيتون تخدم القرية وقرى أخرى مجاورة لها، وأخبرني أنه كانت هنالك معصرة زيتون قديمة أخرى بالقرب من القرية تخدم بقيّة المنطقة. وذات يوم -كما قال- جاء الجيش الإسرائيلي، وفرض حظر التجوال، ثمّ قام بتفكيك معصرة الزيتون القديمة وأعاد تركيبها قرب مستوطنة يهوديّة أقيمت على أرض عربية مصادرة. وعمليّاً، يبدو الأمر اليوم، وبخاصّة في نظر السيّاح السّذج، وكأنّ معصرة الزيتون هذه كانت هنالك منذ قرون، كجزء طبيعيّ من البيئة المحيطة.

تبرز هذه الحادثة أهميّة الذاكرة المُجسّدة. كما أنّها تدلّل على سهولة التلاعب بالذاكرة. ولكن ما هو مدى فاعلية هذا التلاعب؟ أتذكّر هنا قصّة رواها لي زميلي إبراهيم أبو لغد في مناسبات مختلفة. وقد قامت ابنته ليلى أبو لغد، الأستاذة في جامعة كولومبيا (2001) بتوثيق هذه القصة. حين قرّر أبو لغد العودة في العام 1993، ليشغل موقع نائب الرئيس في جامعة بيرزيت، توجّه لزيارة مدينة يافا، مسقط رأسه، التي أجبر على مغادرتها في العام 1948، حين كان في التاسعة عشرة من العمر. باستثناء الحيّ العربي الصغير الذي جرى إفقاره، كانت يافا قد تحوّلت إلى مدينة يهوديّة، تحمل شوارعها أسماء عبريّة. استوقفَ أحد الأطفال العرب في الشارع وسأله أين يقع شارع الملك فيصل، ذلك هو اسم الشارع الذي كان يعيش فيه، قاده الفتى مباشرة إلى هناك، على الرغم من أنّ الشارع بات يحمل الآن اسماً عبريّاً، قائلاً إنّ جميع العرب في الحيّ ما زالوا يعودون إليه باسمه الأصلي، بعد خمسة وأربعين عاماً من سقوط يافا وتحويلها إلى مدينة يهوديّة. وقد سُرّ أبو لغد لمعرفته بأنّ الآباء الفلسطينيين ما زالوا يعلّمون أولادهم تاريخ المكان.

إنّ التاريخ، وبخاصّة التاريخ الشفوي، يعيد بعث صاحب الأرض الأصليّ، ويحيي ثقافته وتجاربه. فهو يضع الوقائع في نصابها، ويكشف ما جرى طمسه عن عمد، متخلصّاً من التحيّز المتأصّل الناجم عن التفاوت الصارخ في علاقات السلطة التي قادت إلى تدمير موطنه واقتلاعه منه. يؤسس التاريخ الشفوي، إذن، لعلاقة جديدة، ولكن هذه المرّة على مستوى الأخلاق والحقوق. ويغدو، حين يعاد بعثه وإحياؤه، ترياقاً فعّالاً ضد الإلغاء والإقصاء، وعنصراً ضرورياً في عمليّة التّحرر. كان يمكن للمشروع الصهيونيّ أن ينجح لو أنّه قاد سياساته القذرة في الظلّ، لأنّه كان في وسعه، في هذه الحالة، أن يغيّب الساكن الأصليّ ليصبح غير مرئيّ. ولكن، ما إن يصبح الساكن الأصليّ مرئيّاً، حتّى تبدأ المعادلة بالتغيّر. إنّ التاريخ الشفويّ الفلسطينيّ يجعل الفلسطيني مرئيّاً، وبالتالي ندّاً شرعياً، وكونه أصبح لاجئاً، أو أنّه أخفق في استرداد حقوقه المغتصبة، لا ينتقص -بأي صورة من الصور- من هذه الحقوق. إنّ التوثيق التاريخيّ يكشف اليوم بوضوح أنّ للفلسطينيّ حقوقاً أساسيّة، وأنّه لا يمكن تجاهله بعد الآن.

يمتلئ التاريخ الإنسانيّ بالأمثلة على شعوب جرى محوها وتلاشت قضاياها بكلّ بساطة. ولكن في ما يخصّ حالتنا هذه، الفلسطينية، فقد رفض الفلسطينيّون التلاشي. إنّ وجودهم المستمر على الأرض، وليس ما أنجزوه أو فشلوا في تحصيله سياسيّاً، هو ما يضع العقبة الكبرى في طريق المشروع الاستيطاني الذي يهدف أساساً إلى محوهم محواً كاملاً. ينبغي علينا أن نلاحظ سمة أخرى مهمّة: ففي كلّ الأحوال، خيراً كان ذلك أم شرّاً، بات الفلسطيني يمثل مشكلة لليهود، وبخاصّة الصهاينة منهم. كان يمكن للقصّة أن تنتهي على نحو مغاير لو أنّ الفلسطينيّين كانوا في مواجهة شعب آخر. ولكن لأسباب عدّة، فإنّ اليهود يحتلون مكاناً خاصّاً في المخيّلة الغربية. وهذا بالتالي يعني أنّ للفلسطينيين أيضاً وضعيّةً خاصّةً، وإن كان ذلك على نحو سلبي، من حيث أنّهم شخصيّة رئيسيّة في القصّة اليهوديّة. ثمّة اهتمام متزايد ينصبّ على القضيّة. فتغطية أخبار إسرائيل في الإعلام الأمريكي، لا تختلف عن تغطية أخبار حيّ بروكلين. إنّ إلقاء نظرة عادية على صحيفة **نيويورك تايمز** اليومية، مثلاً، يكشف لنا سريعاً أنّ إسرائيل تُرى بوصفها مشكلة محليّة أكثر من كونها مجرّد بلد أجنبيّ صغير وناءٍ.

لطالما عرّف الليبراليون الأمريكيون أنفسهم من خلال تعاطفهم مع القضايا اليهوديّة. ولا يحتاج المرء إلى الحفر عميقاً في سيكولوجية الليبراليين الأمريكيين أو المحافظين لكي يعثر على صلة ما بإسرائيل، وبالتاريخ أو بالثقافة اليهوديّين، بصورة أو بأخرى. لقد سمحت التغطية المُجتزأة والمحرّفة والمتحيّزة في الغالب، ولوقت طويل، لليبراليين الأمريكان بأن يتعايشوا بارتياح مع التناقض الجليّ بين قيم التحرّر والديمقراطية التي يدافعون

عنها بحمية، وبين الممارسات الإسرائيليّة الفظّة واللاإنسانيّة تجاه الفلسطينيّين. والآن، بعد أن بات من غير الممكن احتمال هذا التناقض ولا إخفاؤه، وبعد أن حوّل السياسيون الإسرائيليون من الجناح اليمينيّ المتطرف إسرائيل إلى معقل للفصل العنصري، فإنّ بعض الليبراليين الأمريكيين (Blumenthal, 2013) قد بدأ يتغيّر.

أمّا المحافظون الأمريكيّون، فإنّهم لا يعانون من أيِّ تناقضات، وبالتالي، لا يساورهم مثل هذا القلق. وعلى العكس من ذلك، فإنّهم يمتلكون روايتهم الخاصّة للتاريخ. لقد كان المسيحيّون الرسوليّون صهاينةً حتى قبل ظهور الصهيونية بالصيغة التي حملت بصمة هرتسل في نهاية القرن التاسع عشر. تُقدّم روث كارك (Ruth Kark) (1983) تقريراً مفصّلاً حول عمل الألفيّين الأمريكيّين والبريطانيّين في فلسطين. وتشير إلى أنّ ألكساندر كيث (Alexander Keith) هو من دعا، قبل الصهاينة الأوروبيين بوقت طويل، إلى منح "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". كما أنّها تقتبس عن الرئيس جون آدامز (John Adams) (1994) قوله "أتمنّى حقاً أن يعود لليهود مرة ثانية دولة مستقلّة في يهودا". مع أنّه كان متأكداً، في فكره الخاصّ، من أنّهم سيتحولون بالتدريج إلى طائفة التوحيديين (Unitarians). وفي نهاية المطاف، فإنّ هذا تحديداً ما يجعل قوى الضغط المناصرة لإسرائيل بهذه القوّة، أكثر ممّا يفعل المال أو الإمكانيات السياسيّة.

وعلى الرّغم من هلوسات جون آدمز هذه، فإنّ الفلسطينيّين كانوا هنالك أصلاً، وقد رفضوا المغادرة. عادة ما يصف التيار الغالب بين المؤرّخين إصرار الفلسطينيّين على البقاء بالإشارة إلى أنّه في العام 1948، كان لدى المجتمع الفلسطينيّ نخبة متعلّمة نجحت في الإبقاء على النّضال حيّاً. وهذا صحيح إلى حدّ ما. كان هنالك مراكز حضريّة كبيرة لديها صحافة حيّة، وأحزاب سياسيّة، ودور سينما، وتجارة، وبعض الصناعات والمعامل، إضافة إلى زراعة منتعشة. وقد سيطر المستوطنون اليهود الجدد على اقتصاد فاعل:

من إحدى المقابلات مع المسنات لتوثيق التاريخ الشفوي، وذلك ضمن مسار مشروع التاريخ 2012 .

استولى أطباء الأسنان اليهود على العيادات المُجهزّة التي تعود للعرب، وكذلك فعل الأطباء العامّون وغيرهم. نُهبت ممتلكات النخبة ذات النفوذ والتعليم العالي، وصودرت مكتباتها العامرة. فلا صحّة، تاريخياً، للأسطورة التي اختلقها الاستعماريون الغزاة، زاعمين أنّهم جعلوا الصحراء تزهر، وأنّ هذه الأرض كانت أرضاً بلا شعب.

غير أنّ الحقيقة التي يتم تجاهلها هي أنّ أفراد هذه النخبة الفلسطينيّة نفسها قد أخفقوا في صنع القيادة الضرورية للحيلولة دون امتداد كارثة العام 1948 واتساعها؛ بل كانوا في كثير من الأحيان، أوّل من لاذ بالفرار. وهذه ثيمة تتكرّر باستمرار في التاريخ الشفويّ. ومن الثيمات الأخرى المتواترة أيضاً مسؤوليّة الحكّام العرب، وعلى وجه الخصوص، الملك عبد الله، ملك الأردن الذي اغتيل فيما بعد على يد أحد أولئك اللّاجئين. وقد وُثقت هاتان التّهمتان توثيقاً موسّعاً، حيث يبرز إخفاق القيادة الفلسطينية جليّاً في التفاصيل المؤلمة للعديد من المذكّرات. ولعلّ أهمها مذكّرات رشيد الحاج إبراهيم التي نشرتها مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة بمقدّمة مطوّلة للأستاذ وليد الخالدي (2010) بعنوان "الدّفاع عن حيفا وقضيّة فلسطين". في ما يتعلّق بالمسألة الثانية، أتذكّر أنّني سمعت والدي وكثيرين غيره يتحدّثون عمّا بدا لهم، اعتماداً على ملاحظاتهم وعلى ما سمعوه، مؤامرة بين الملك عبد الله والصّهاينة لتقاسم فلسطين فيما بينهم. وأتذكّر أنني كنت عادة ما أرفض هذه المزاعم بوصفها تفتقر للبرهان، ولكونها، ربّما، مجرد تعبيرات عن الغضب والإحباط. إلّا أنّه بعد ذلك بأعوام، توفرّت بالفعل أدلّة كافية، اعتماداً على أبحاث في الأرشيف الصّهيوني. وقد أنجز هذا العمل الرائد في هذا المجال علي يد سليمان بشير (2001)، وهو مؤرّخ فلسطينيّ شابّ من جامعة بيرزيت، قام بنشر دراسة مهمّة قامت على بحث أرشيفيّ حول العلاقة بين الملك عبد الله والقيادة الصّهيونيّة، بما تتضمّنه من لقاءات سرّية بين الطرفين ودفع مبالغ منتظمة من المال استمرّت حتّى العام 1947. لم تنجح تلك الدراسة القصيرة، المنشورة بالعربية، على الرّغم من أهميّتها، في الحصول على ما تستحق من اهتمام. بعدها بأعوام، اعتمد المؤرخ آفي شلايم (Avi Shlaim) (1988)، من أكسفورد، وهو باحث إسرائيلي، على وثائق رُفعت عنها السّرية ليثبت أن الملك عبد الله قد تعاون مع القيادة الصهيونيّة فقط؛ بل تلقيه الأموال أيضاً مقابل ما قدّمه من خدمات. وقد أكّد مؤرخون إسرائيليون آخرون من أنصار المراجعة التاريخية هذه الاستنتاجات التي تستند إلى البحث الأرشيفيّ، بحيث أنّ الاتصال بين الطرفين بات حقيقة معترفاً بها على وجه العموم.

يغيب الناس العاديّون في المدن والقرى عن الروايات التاريخيّة الفلسطينية، فالتشديد المفرط على دور النخب يؤديّ إلى التقليل من دور الفلاحين الفلسطينيين الذين أصبحوا منذ العام 1948، مسيّسين إلى حدّ كبير، وبالتالي، واعين تماماً للتهديد الوجوديّ الذي تتعرض له حياتهم على يد الاستعمار الاستيطاني الصّهيوني. بتجذّرهم عميقاً في أرض أجدادهم وتشبثهم القويّ بها، لم يكن لهؤلاء الناس العاديّين أن يسلّموا لمصيرهم. وهذه الحقائق تتناقض تناقضاً حادّاً مع تصريحات القادة الصهاينة الذين يحيلون إلى هؤلاء الناس بوصفهم بدوًا مترحلّين، يمكن بسهولة إعادة توطينهم في أيّ مكان من العالم العربيّ الفسيح.

إنني لا أسعى هنا، بأي حال من الأحوال، إلى رسم صورة بطوليّة أو مثالية للفلسطينيين العاديّين، كما أنّ هذا ليس، بالتأكيد، ضرباً من النوستالجيا. تخبرنا شهادات التاريخ الشفويّ بالشيء الكثير حول الكيفيّة التي ينظر بها هؤلاء الفلسطينيون العاديون إلى شرط وجودهم، وعمّن كان مسؤولاً عن اقتلاعهم من قراهم ومدنهم، وفي ظلّ أي ظروف أجبروا على مغادرة منازلهم. وفي كلّ الأحوال، فإنّ السّرد الذي يتمخّض عن هذه الشهادات ليس بالسرد المُتحفّظ ولا البطولي، ولا هو متفاخر بالنّصر أو متبجّح؛ بل إنّه يتباين تبايناً حادّاً مع البلاغة الرصينة للطبقة السياسية التي تدّعي العمل نيابة عنهم. نعثر على أحد الأمثلة الصارخة على ذلك في مذكّرات رشيد الحاج إبراهيم، المناضل الحيفاوي الذي سبق ذكره، حيث يروي الكاتب بأسلوب واقعيّ، بعيداً عن الزّخرفة أو المبالغة، الأحداث التي قادت في نهاية المطاف إلى سقوط مدينته ومسقط رأسه، محدّداً بوضوح على من تقع مسؤوليّة ما حدث، ومبيّناً ما فعله الفلسطينيون العاديّون في محاولتهم الدفاعَ عن منازلهم وأراضيهم.

إنّ السّرد الذي يصدر عن المقابلات الفردية في التاريخ الشفوي يكون في العادة واضحاً وواقعيّاً وبسيطاً، يذهب إلى الهدف مباشرة. وهو لا يتضمن مبالغات، ويبدو، عمليّاً، مثل شهادة يدلي بها المرء أمام المحكمة. إنّنا عادة ما نجد نزعة انتصاريّة ومبالغات في سرديّات الخطاب حين يتوجّه الشخص إلى حشد من الناس وهو يشعر بضرورة تحفيزهم، أو دعوتهم إلى الفعل وتحريضهم عليه. ولكنّ في المقابلات الفرديّة، كما يُظهر لنا عمل روز ماري صايغ (Rosemary Sayigh)، تكون الاستجابة أكثر واقعيّة، وبخاصّة إذا كان الشخص مرتبطاً بعلاقة مباشرة مع الحدث. وفي الحقيقة، فإن ردّ الفعل الأوّل لهؤلاء الأفراد يتمثّل، في أغلب الحالات، وعلى نحو نمطيّ، بالصمت، وكأنهم يحاولون العثور على الكلمات التي تصف الوضع وصفاً صحيحاً. ويحتاج الأفراد في مثل

هذه المقابلات إلى التحفيز بلطف على يد مُحاورٍ ماهر.

لماذا من المهمّ أن نبدأ من نكبة العام 1948؟ ليس لأنّ الفلسطينيين مصابون بالشّلل العاطفي ويعانون مما أطلق عليه بعض الأطباء النفسيين الأمريكان بكلّ سهولة "الاضطراب النفسيّ النرجسيّ"، ولا لأنّهم مسكونون بها، رغبة منهم في الترويج لصورتهم كضحيّة. مثل هذه التفسيرات النفسيّة السهلة اختزاليّةٌ في أفضل الأحوال، إلا أنها تعكس ميلاً أساسيّاً لدى محلّلي النزاعات الأمريكيين والإسرائيليّين وحتّى لدى السياسيين إلى تفسير الصراع بأدوات علم النفس، كي يتمكنوا من إدارته أو احتوائه بدلاً من السعي إلى حلّه. أتذكّر هنا مقولة هنري كيسنجر في مؤتمر باريس للسلام الذي عُقد لإنهاء حرب فيتنام، حيث تمنّى، في نهاية المطاف، أن يزيح هانوي من الصفحات الأولى لجريدة **نيويورك تايمز** إلى الصفحات الخلفية، وبعبارة أخرى، فقد تمنّى النزول بصراع فيتنام من مشكلة إقليمية وعالمية إلى مجرد مشكلة محليّة، حيث يصبح بالإمكان التعامل معه واحتواؤه. كما أتذكّر أيضاً المقولة الشهيرة لسفير أميركا لدى الأمم المتحدة، حين صرخ بغضب: إنّ ما يحتاجه الإسرائيليّون والعرب هو مجموعة من الأطّباء النّفسيّين. وأستحضرُ أيضاً مئات السّاعات التي أهدرتها مجموعات حوار رعاها أطباء نفس بارزون ومنّظرون حول الصراع، وقد شارك في بعضها كاتب هذه السطور. وغنيّ عن القول، أنّ هذه الممارسات في مجال «النفس وتقنيات السياسة» نادراً ما حقّقت الأهداف المرجوة منها، بل غالباً ما تنتهي إلى عكس ما رمت إليه. وكما يشهد عدد من المحلّلين وبعض المشاركين، فإنّها لم تقدّم لنا أيّ تقارب من شأنه إيجاد أرضيّة مشتركة للتعايش (Rabinowitz, 2001).

لقد استند الغزو الصهيوني لفلسطين دوما إلى نظرة ترى أنّ طبيعة السكّان الأصليّين البشرية أقرب إلى طبيعة الفئران. وهي تقوم، مثلما هو الحال في اشتراط بافلوف (Pavlovian situation) الكلاسيكيّ، على ممارسة على العنف [ضدّ الفلسطينيين] بهدف تحجيم تطلعّاتهم، ومن ثمّ صياغتها. فإذا لم يكن مستوى العنف فاعلاً، يجري استخدام جرعة أقوى منه. وهكذا، عبر التاريخ المعاصر، ارتبط العنف ضدّ الفلسطينيّين، على الدوام، ارتباطاً وثيقاً بضرورة نفسيّة تهدف إلى إجبار الفلسطينيّين على أن يقبلوا الواقع الذي تفرضه إسرائيل، وعلى أن يخلصوا إلى نتيجة مفادها أنّ لا جدوى من المقاومة. وتكشف مراجعة عامّة للأدبيات الإسرائيلية حول كيفية التعامل مع الفلسطينيين أنّ هذا الأمر لا يزال مفتاح العمل الأساس عند صنّاع القرار. يشير الأستاذ يورام بيري (Yoram Peri) وهو خبير مرموق في العلاقات المدنيّة العسكريّة، إلى حدوث تحوّل دراماتيكي في السلطة، ضمن النظام السياسي الإسرائيلي، يعزّز على نحو أكبر هذا التوجّه الموجود أصلاً. وتشير الأدلة إلى أنه في الوضع التي يبدو فيها النظام السياسي مشلولاً، فإنّ الجنرالات، بتعريفهم الضيّق وقصير النظر للأمن، في كثير من الأحيان، هم من يمسك بزمام الأمور في ما يخصّ صنع سياسات الدفاع والخارجيّة.

لا شكّ في أنّ نكبة العام 1948 كانت حدثاً هائلاً مثّل رضّة للشعب الفلسطيني. ولكنّ هذا لا يعني أن ننظر إليها من منظور نفسيّ فقط. فما حدث في العام 1948 مهمّ؛ لأنّ الماضي والحاضر قد امتزجا فيه معاً، في دراما وجوديّة متّصلة. إنّ دولة إسرائيل التي أُنشئت كنتيجة لفعل تطهير عرقي كبير، ظلّت تعيد إنتاج نفسها بالطريقة ذاتها، بصرف النظر عن الحكومة التي تتولّى السلطة. ولم تنتج هذه الآلية وقائع على الأرض فحسب، لكنّها أثّرت كذلك في وعي الناس الذين عانوا تداعياتها. ولذا؛ فإنها صاغت الذاكرة بطريقة واحدة. وهكذا لم تعد الذاكرة مجرد مستودع للمعلومات؛ بل باتت، بدلاً من ذلك -وكما يبين أليساندرو بورتللي (Alessandro Portelli, 1998)- عمليّة متواصلة من صياغة المعنى وإعادة بنائه. إنّ الذاكرة في المخيّلة الفلسطينية هي، في الصميم، تجربة اجتماعيّة مشتركة، جرى تنشيطها وإعادة تنظيمها باستمرار حتّى باتت عنصراً أساسيّاً في تعريف الهويّة.

وهنا تكمن أهميّة التاريخ الشفوي الفلسطينيّ الذي يبيّن كيف يحاول البشر العاديون منح معنى لمعضلتهم، رافضين في الوقت ذاته أن يكونوا كابياءات خنزيريّة[1] في المختبر العملاق للاحتلال العسكري والتطهير العرقي. وتلاحظ لين أبرامز (Lynn Abrams, 2010) ما يلي: "لا يُنظر إلى الذّاكرة الفرديّة إذن، كظاهرة نفسيّة واضحة ومباشرة، وإنّما كتجربة اجتماعيّة مشتركة" (ص 97). فهي تُخلق ويعاد خلقها ضمن العائلة والمجتمع والأمّة.

إنّ استمرار الذاكرة الفلسطينيّة والتعلق الشديد بالهوية الوطنيّة يعود في جزء كبير منه إلى طبيعة المنفى الفلسطينيّ وأشكاله: عائلات غادرت قراها وانتقلت لتستقر مع عائلات أخرى في المنطقة ذاتها، ما عمل على إدامة العلاقات الأسريّة والقرويّة إلى حدّ كبير. أتذكر جيّداً زيارةً إلى عمان العام 1974 بعد غياب دام ما يقرب من ثماني سنوات، وهي تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة المهمة: متسلّحاً بجواز السفر الأمريكي، قرّرت أن أزور بيروت، وعمّان والضّفة الغربية. في عمّان، ذهبت لزيارة خالي العزيز ولكنني لم أكن أتذكر تماماً كيف أصل إليه. قالت أميّ إن الأمر سيكون سهلاً وأشارت عليّ أن استقل سيارة أجرة من وسط مدينة عمان، من تلك التي تنقل الركّاب إلى جبل التاج، وهو أحد التلال

التي تقوم عليها المدينة. وقالت لي "أُطلب من السائق أن يوصلك إلى حيث يسكن الناس الذين قدِموا من عين كارم. ثمّ اسأل أي شخص وسيدلّك على البيت"، وهذا ما فعلته. وحين نزلت من سيّارة الأجرة، رأيت بعض الأولاد يلعبون في الشارع فسألتهم. قادوني إلى بقّالة صغيرة في الشارع وقالوا لي إنّ صاحبها سيكون قادراً على الإجابة عن أسئلتي. وتبيّن أنّه تربطني بصاحب البقّالة صلة قرابة غير مباشرة، وقد عرفني بوصفي ابن عايشة جبرين. بعث معي أحد الأولاد من الشارع ليدلّني على المكان الذي يعيشون فيه، وفي الطريق رأيت سيدتين ترتديان الثوب التقليدي لنساء عين كارم. ألقتا التحيّة عليّ ثمّ سألتني إحداهما إن كنت ابن عائشة جبرين (مستخدمة لقبي في الصّغر)، وحين قلت نعم احتضنتني بقوة وعرّفتني على نفسها. وقد تبيّن أنها تلك البنت التي تزوجت أحد أخوالي، لكنهما افترقا. وتذكّرتُ أنها كانت أحد الأقارب الأثيرين لديّ، وقد انفصلت عن زوجها، الذي هو خالي.

بعدها بسنوات، وحين توفيّت والدتي، رافقنا أنا وأخي جثمانها إلى عمّان، حيث بتنا ليلةً قبل عبور الجسر لندفنها في القدس، وفقاً لرغبتها. كانت سيارة الإسعاف التي نقلت الجثمان من المطار تنتمي لجمعيّة عين كارم. وفي اليوم التالي نُقل الجثمان في سيارة الإسعاف نفسها إلى الجسر قبل دخولنا الضفّة الغربية، ومن ثمّ توجّهنا إلى المقبرة في القدس. لقد أنشأت العديد من القرى مؤسساتٍ مماثلةً تخدم أغراضاً متعدّدة: مساعدة الطّلاب المحتاجين بتقديم منح دراسيّة لهم للالتحاق بالجامعة، ومساعدة الأسر المحتاجة، والمساهمة في تكاليف الدّفن، وهلمّ جرّا. وقد تكرّر هذا النمط ذاته في الضفة الغربية وقطاع غزّة. إضافة إلى ذلك، نظّمت النساء الفلسطينيات في مخيّمات اللاجئين ورش عمل لإعادة إنتاج الثوب التقليدي (الثوب الفلسطيني الملوّن)، حيث لكلّ منطقة تصميمها الخاصّ، كما أنّ النساء في القرى كن يشاركن في تجهيز ثوب الزفاف للعروس الجديدة. ويمكن للمرء أن يميّز جيداً الثوب التقليديّ لكل مدينة أو قرية.

ولعلّ هذا ما يفسّر عدم تفكك المجتمع الفلسطيني في مواجهة الهجمات الشرسة التي تشنّها إسرائيل على مر السنين، والتي تهدف أساساً إلى تدمير البنية التحتيّة الاجتماعيّة للفلسطينيين، وطمس ذاكرتهم، والقضاء على إرادتهم في المقاومة. ولعلّه يفسّر أيضاً ما الذي يجعل موظفي الخدمة المدنيّة البسطاء والمعلّمين قادرين على البقاء والاستمرار ورعاية عدد كبير من العائلات على الرّغم من فشل السلطة الفلسطينيّة في دفع رواتبهم لشهور متتالية. لقد نظّم الفلسطينيون ذاكرتهم بصورة واعية وبطرق ملموسة وماديّة من أجل الحفاظ على صلتهم بالمكان والأرض.

من إحدى المقابلات مع المسنات لتوثيق التاريخ الشفوي، وذلك ضمن مسار مشروع التاريخ 2012 .

كما حاولوا الحفاظ على مختلف أشكال التضامن الاجتماعي وتحديثها، تلك التي تميّز عادة حسّهم المجتمعي. لقد فعلوا ذلك بأساليب متعدّدة، وهذا يرجع في الغالب إلى أنّ الذاكرة عندهم ليست "إدراكا" أوّ "حنيناً انفعالياً" فقط. فالطابع الماديّ للذاكرة بات وسيلةً للحفاظ على حيويّة الجماعة وسلامتها وعلى روابطها التاريخية أيضاً.

لقد حافظت معظم أسر اللاجئين الفلسطينيين بعناية على مجموعة من الآثار التي أصبحت علامات عظيمة الدلالة في الذاكرة. وتشمل الآتي: مفتاح المنزل، نسخة من شهادة الميلاد في نموذج صادر عن حكومة فلسطين، باللغات الرسمية الثلاث في عهد الانتداب البريطاني (الإنجليزيّة والعربية والعبرية). وفي بعض الأحيان، نسخة من جواز سفر صادر عن حكومة فلسطين. في حالة والدي، ثمة كشف حساب مصرفيّ من بنك باركليز (Barclays Bank) في القدس، يظهر أنّ لديه مبلغاً صغيراً من المال في حساب توفير، ونسخة من سند ملكية الأرض والبيت، فضلاً عن إيصالات عن مبيعات الأراضي والأملاك وكذلك سندات ملكية الأرض، وصورة للعائلة والبيت. غالباً ما تفرد هذه الحزمة من وقت إلى آخر ليعرفها الأطفال الصغار أو الأبناء الكبار أو الأقارب الآخرين، بل والزوّار أيضاً. أتذكّر أنني دعيت في العام 1978، مع عدد من العرب-الأميركيّين للقاء الرئيس كارتر في البيت الأبيض. فصّورت نسخاً من سندات ملكية أرضنا ووضعتها في مغلف، مع رسالة أخبرته فيها أنّني على يقين من أنّه، بوصفه شخصاً ينحدر من الجنوب الأميركي، سيقدّر الأهميّة التي نوليها لأرضنا ولإرثنا.

في بعض الحالات، تكون السجلّات أكثر توّسعاً بحيث تورد مزيداً من الأدلة على أهميّة الذاكرة. لقد أطلعني زميل كان والده يحتفظ بسجلّات دقيقة على الآتي: ملاحظات شخصيّة حول ولادة كلّ طفل تتضمن تاريخها ومكانها واسم القابلة، وتدوين لزيارات الأطباء، والنفقات اليومية مفصلّة ومصنّفة (بدل إيجار، مصروفات بيتيّة، مواد بقالة ... وهكذا)، والنفقات المدرسية لكلّ طفل. إنّ آثاراً كهذه تمثلّ كنزاً حقيقيّاً للباحثين المهتمين بالتاريخ الاجتماعي للشعب الفلسطيني. وما زال العديد من السجلّات موجوداً بانتظار الحفر والتنقيب فيها لاستخلاص معلومات ثمينة، وأرشفتها بالصورة المناسبة. احتفظ زميل آخر، كان والده مديراً لمدرسة خاصّة مهمّة في بيت لحم بكامل الأوراق الخاصّة التي تعود لوالده. وأنا متأكّد أنّ كثيرين غيره قد احتفظوا بأوراقهم ومكتباتهم الخاصّة. وينبغي للمشروع المقترح لإنشاء متحف الذاكرة الفلسطيني أن يتقدّم نحو إيجاد آليّات لاستعادة هذه الوثائق وأرشفتها وجعلها متاحة للباحثين والمؤرخين.

لقد تملّك المجتمعَ المدني الفلسطيني، طوال سنوات، إحساس ملحّ بالحاجة إلى تسجيل شهادات الناس قبل موتهم. لا يمكن المبالغة في أهمية هذه الظاهرة، لكنّها تمثّل مقياساً للدرجة التي بلغها عدم رضا الناس عن التدوين الرسمي للتاريخ الفلسطيني. فلنلقِ نظرة على كتاب التاريخ الفلسطيني الذي وضعته السلطة الفلسطينية لطلبة الصف الحادي عشر. سيقوم الطلبة بمذاكرته من أجل الامتحان السخيف الذي يجبرون على تأديته، لكنهم لن يتعلّموا إلا القليل من تاريخهم. وفي الواقع، إنّهم لن يكونوا أكيدين أيّ فلسطين يفترض بهم أن يعرفوا؛ الضفة الغربية وغزّة أم ماذا؟ ولذا، فإنّ من شأن الإحساس الملحّ بضرورة تسجيل الأشياء أن يملأ الفراغ، أو أن يكون مدعاة لوضع الحقائق في نصابها قبل أن تنتهي الرواية الرسمية من تحريفها خدمةً لغاياتها السياسية الضيقة.

ثمة سبب آخر يبُرز النشاط المحموم في أوساط المجتمع المدني من أجل تسجيل الشهادات، ألا وهو أنه كان لدينا، خلال مدة طويلة، تاريخ لفلسطين وليس للفلسطينيّين. فقد اختُزل هؤلاء إلى أرقام ومقولات مجرّدة. وعندما يتحدث البعض عن اللاجئين، فإننا لا نعرف شيئاً حول الكيفية التي تحوّلوا بها إلى لاجئين، وما الذي اختبروه خلال تلك العملية، وكيف تدبروا أمرهم لكي يبقوا على قيد الحياة. أمّا حين نتحدّث عن الاحتلال، فقليلاً ما يتطرق الحديث إلى الحياة اليومية – حواجز التفتيش المذّلة، والتعذيب، واعتقال الأطفال والنساء، وهدم البيوت التي يُزعم أنّها بنيت بطريقة غير قانونية. عبر ملء الفراغ، يقوم التاريخ الشفوي الفلسطيني بتفعيل ما تسمّيه تارا مارتن (Tara Martin) (Abrams, 97) «الذاكرة السفلية». تمنح هذه العملية صوتاً لأولئك الذين هُمّشت تجاربهم، وتجعل هذه التجارب مرئية وربّما ملموسة أيضاً. لقد بتنا نعرف، اليوم، أسماء بعض النساء الناشطات وحكاياتهن، ممّن قمن بدور رياديّ في النضال الفلسطيني من أجل الحرية وتقرير المصير، خلال سنوات الانتداب البريطاني، ولاحقاً خلال فترة الاحتلال الإسرائيليّ.

لا ذكر لهؤلاء النساء في كتب التاريخ التقليدية. أمّا اليوم، وبعد أن تم اكتشافهن، فإنّه لن يعود في وسع أي كتاب تاريخ أن يتجاهلن. ولكن ليس على النساء أن يؤدين دوراً رياديّاً كناشطات لكي يكنّ جديرات بأن يشملهن التاريخ الفلسطيني، فقد قاتلن وناضلن للحفاظ على شمل العائلات وعِشن ليروين الحكاية.

إنّ شهادات التاريخ الشفوي هي بحكم التعريف، خيراً كان ذلك أم سوءاً، شهادات أولئك الأفراد. لقد شهد البعض أحداثاً مباشرة، بينما سمع الآخرون بها، ونحن نعرف مع ذلك، أنّ الذاكرة الفردية

تتشكّل، دائماً تقريباً، ضمن الوعي الجمعيّ أو وعي الجماعة. وكما يخبرنا موريس هالبواخ (Maurice Halbwachs, 1950)، "قد تبدو الذاكرة شخصيّة؛ لكنها تتأثّر دوماً بالذاكرة المشتركة (العائلة، المجتمع، أو حتّى على المستوى الوطنيّ)". وفي حالتي، أستعيد بوضوح حكاياتٍ قصّتها عليّ كلّ من والدتي وجدتي حول الحياة في القرية، وحول العائلات المختلفة التي كان من بينهم عائلات نزيهة، وأخرى ليست كذلك. وعلى الرّغم من أنني لم ألتقِ بها مطلقاً، فإنّني شعرت بأنني أعرف الكثير عنهم. وأذكر أيضاً أنّه في الأيام الأولى كان بوسع العائلة بأكملها أن تذهب من بيت لحم إلى أعلى جبل في قرية بيت جالا المجاورة حيث يتنزهون وينظرون بحزن إلى أراضيهم، من بعيد. وأتذكر أنني رأيت عائلات أخرى تقوم بالشيء ذاته. وإلى جانب ذلك، أتذكّر أن بعض أعمامي كانوا يتسلّلون إلى القرية من أجل استرداد بعض أشيائهم الثمينة التي خلّفوها وراءهم. ولكن سرعان ما توقّفت هذه الممارسة؛ لأن الإسرائيليّين بدأوا بإطلاق النار على الناس الذين كانوا يتسلّلون ليستعيدوا بعض ممتلكاتهم. يتحدّث بيني موريس (Benny Morris) عن هذه الفترة بشيء من التفصيل في كتابه **حروب إسرائيل الحدوديّة** (1997).

تمثّل ماديّة الذاكرة التي تتجلّى بوضوح في حالة الفلسطينيين عاملاً مصحّحاً مُهمّاً لمفهوم هالبواخ (Halbwachs) الذي يميل إلى منح الأفضليّة للذاكرة المشتركة، إذ من الواضح أنّه لو أُبقي على الذاكرة على المستويين الإدراكي والوجداني فقط، لفَقَد الفلسطينيون تمسّكهم بالمكان منذ أمَدٍ بعيد.

لقد كانت والدتي، لسنوات طوال، هي المصدر الأساس للمعلومات حول الأصدقاء والأقارب المنتشرين في جميع أنحاء العالم. وبينما هي تعيش في سيغنال ماونت- تينيسي (Signal Mt. Tennessee)، داومت على إجراء المحادثات الهاتفيّة مع جميع الناس في لوس أنجلوس، ونيوجيرسي، وتورونتو، والكويت، والضفّة الغربية، وعمّان، وكانت غالباً ما تُمتعنا بقصص عن أناس عدّة. وقد نجحت بصورة افتراضيّة في إعادة إنتاج المحيط الذي عرفته في قريتها وحيّها، وأسهمت في الوقت ذاته في زيادة ثروة شبكة اتصالات AT&T. وحين تُوفيّت في العام 1981، شعرت أنّني قد فقدت صلة أساسيّة بجزء من حياتي تشابك فيه على نحو ما الماضي والحاضر تشابكاً ممتعاً في كثير من الأحيان. وعلى الرّغم من أنها كانت أُميّة، فقد كانت تستمع إلى مختلف نشرات الأخبار، فظلّت على اطّلاع بما يحدث في الشرق الأوسط، وطوّرت آراء قويّة حول البلدان والزّعماء: كانت تكره *البريطاني* حتى آخر يوم في حياتها، وكانت تنتقد الحكومة الأمريكيّة ولا تتحدث بإيجابية إلّا عن الرئيس جيمي كارتر، كما كرهت الزعماء العرب جميعهم باستثناء عبد الناصر وعرفات. وكانت توبّخني، في بعض الأحيان، إن تحدّثت بصورة نقديّة عن عرفات. أحبّت فيدل كاسترو ونلسون مانديلا وهو شي منه، وكانت سعيدة عندما توحّدت فيتنام أخيراً وتخلّصت من الأمريكان. وقد سمعتها، ذات يوم، توبّخ أحد معارفها العرب على الهاتف لأنه أعرب عن حزنه «لسقوط فيتنام». فعاتبته قائلة: «فَلْتبكِ على ما حدث في فلسطين، ولتفرح للفيتناميين لأنهم استطاعوا أن يحرّروا بلادهم».

تمثّل شهادات التاريخ الشفوي، إلى حد كبير، تأمّلاتٍ حول الماضي مستوحاة من ظروف الحاضر. حين يخبرنا الناس العاديون أنّ الظروف المادية لم تتغيّر كثيراً، فهذا يعني أنّ النكبة كفّت عن كونها حدثاً تاريخيّاً فريداً، وقع بسبب تضافرٍ خاصّ لعددٍ من العوامل التاريخيّة. تلاحظ شيرنا بيرغر غلوك (Sherna Berger Gluck, 2008) في عرضها الرّائع للأعمال التي تناولت التاريخ الشفويّ الفلسطينيّ "وجود صلة غير قابلة للانفصام بين الماضي والحاضر" كثيمة متكرّرة. وتستشهد بمقال لينا الجيوسي الذيّ "يوضح بجدارة كيف أنّ الماضي كامن في الحاضر، وأنّ الحاضر استمرار للماضي". كما أنّها تقتبس حاييم بريشيث (Haim Bresheeth) الذي أظهر تداخل الماضي والحاضر والمستقبل في تحليلاته لتمثيلات النكبة في السينما.

وعلى مدى العقد الماضي، برزت ظاهرة تدعو إلى الإعجاب داخل المجتمع المدنيّ الفلسطيني، فقد أنتج الفنانون والسينمائيون الفلسطينيون من الشباب أعمالاً عالية الجودة فازت بجوائز دوليّة. وقد حازت العروض الفنية المتجولّة على الاهتمام في أوروبا وأمريكا، وحظيت بتقارير إيجابية في وسائل الإعلام الأكثر أهميّة، وبالمثل، لاقت الأفلام التي أنجزها السينمائيون الفلسطينيون استحساناً واسعاً أيضاً. يحدث هذا كلّه في وقت تبدو فيه الظروف السياسية على الأرض عالقة في مساراتها القديمة والخطاب السياسي عاجزاً عن أن يعكس الواقع الذي يحكم حياة الناس.

توظّف السينما الفلسطينيّة الأدوات والمواد ذاتها التي تغذّي وتحرّك التاريخ الشفوي. فيستخدم إيليا سليمان في فيلمه "الزمن الباقي" (2010)، مذكّرات والده ورسائل أمّه إلى العائلة والأصدقاء لصنع فيلم يعكس التجربة الفلسطينية منذ العام 1948 حتى الوقت الحاضر. هنا، يعثر المرء على صيغة بصرية من التاريخ الشفوي، حيث تجبر مجموعة من الوجهاء من الناصرة على توقيع وثيقة استسلام مكتوبة بالعبريّة، وهي لغة لا يفهمونها، أو نشاهد مجموعة من أطفال المدارس العربية يلوّحون

بالأعلام الإسرائيليّة ويغنّون أغانيَ عبريّة، فيما يُوجّه تحذير إلى أحد الأطفال لأنّه جرؤَ على وصف الأمريكان بالمستعمرين.

لقد أنتج صنّاع الفيلم الفلسطيني أمثال سليمان وآن ماري جاسر وهاني أبو أسعد وميشيل خليفي ورشيد مشهرواي وغيرهم أفلاماً متميّزة تتناول نكبة العام 1948، والاحتلال المستمرّ ونظام الفصل العنصري الناشئ، وقضايا الهويّة والبقاء على قيد الحياة. وهم يفعلون ذلك بذكاء من خلال إنتاجهم أعمالاً على قدر من الجودة يمكن لأناس في أماكن بعيدة أن يجدوا أنفسهم فيها. إنّهم قادرون على ذلك، لأنّ فلسطين باتت نوعاً من استعارة جديدة، في العالم كله، للتوق الكوني إلى العدالة والحريّة. إنّ مقولة نيلسون مانديلا "حريّتنا ناقصة من دون حرّية الفلسطينيين" تمثّل اليوم شعوراً عالميّاً معترفاً به. ويسجّل لمبدعين من الطراز العالميّ مثل إيليا سليمان، ومحمود درويش، ومنى حاطوم، الذين شاءت الأقدار أن يكونوا فلسطينيين، أنّهم حقّقوا إنجازاً رائعاً تمثّل في الارتقاء بهذا الصراع المحليّ إلى المستوى العالميّ.

ليس التاريخ الشفوي الفلسطينيّ، حاله حال التاريخ الشفويّ في أماكن أخرى، ليس بالتاريخ الساكن. فقد رصدت روز ماري صايغ (Rosemary Sayigh, 2012) تحولّات مهمّة في طريقة الإدراك بين ما سمّته جيل النكبة،، وجيل الثورة ، ثمّ جيل أوسلو.

وقد انصبّ تركيزها على نحو أساسيّ على قضايا الهويّة، ولاحظت أنّ مرور الوقت قد أخفق في تحجيم الهويّة الفلسطينية أو إضعافها، بل إنّه، وعلى النقيض من ذلك، قد عمل على تقويتها.

ومع ذلك، فإنّنا نلحظ غياب الذاكرة السير-ذاتيّة، والاستعاضة عنها بالذاكرة التاريخيّة. وبشكل واضح، فإنّ الأولى أغنى وأكثر راهنيّة من الثانية. وتحذّر روزماري صايغ (2012) أيضاً من أنّه بمرور السنين، وفي غياب دولة أو سلطة سياسيّة توجّه وترشد، سيأخذ مستوى المعرفة التاريخيّة بين الفلسطينيين في التراجع.

إنّ مسحاً سريعاً لكتب التاريخ التي يستخدمها الطلاب الفلسطينيون لتعلّم تاريخهم سيكشف عن هفوات وثغرات فادحة وصادمة. ولعلّ هذا ما يفسّر الفقر الشديد في المعرفة التاريخيّة بين الشباب الفلسطيني. وأنا أتحدّث هنا عن الكتب التي تضعها السلطة الفلسطينيّة منذ العام 1994، حين تولّى الفلسطينيون مسؤوليّة النظام التعليمي. لقد وضعوا في ذلك الوقت مناهجهم الموحّدة الخاصة بهم، واحتفوا بتلك المناسبة بوصفها لحظة مصيريّة، حيث طُبّقت المناهج في المدارس الحكوميّة، وكذلك في مدارس وكالة الغوث في كلّ من الضّفة الغربية وقطاع غزّة. أمّا في الفترة التي سبقت ذلك، فقد كان المنهاج الأردني يستخدم في الضفة الغربية، والمصريّ في قطاع غزّة.

من إحدى المقابلات مع المسنات لتوثيق التاريخ الشفوي، وذلك ضمن مسار مشروع التاريخ 2012 .

أنتجت السلطة الفلسطينيّة نظاماً تعليمياً شديد المركزيّة يزخر بجيش من المشرفين والمفتشين يراقبون ما يحدث في الفصول الدراسية. وهكذا فإنّ معلّمي التاريخ ملزمون بالتقيّد بالمنهاج المُقرّر، وثمّة مساحة ضيقة لإدخال مواد إضافيّة أو للخروج عن نصّ الكتاب المدرسي. علاوة على ذلك، فهم عرضة للتخويف والتهديد، فيتجنبّون، لذلك، استحضار ما قد يُعدّ مواضيع حسّاسة أو مثيرة للجدل. وخلاصة القول، إنّه باتباع نظام "التعليم البنكي"، يحفظ الطلاب عن ظهر قلب نصوصاً رديئة، ويجيبون عن أسئلة في امتحانات تعتمد على التذكّر، فينهون المرحلة الثانوية دون معرفة الكثير عن تاريخهم وعن أسباب ما وقع لهم من أحداث.

وما يثير السخرية، هو أنّ المعلّمين كانوا أكثر حريّة خلال أعوام الاحتلال الإسرائيلي، على الرّغم من الرقابة الإسرائيلية والتحكّم السياسي. فقد كانوا يثيرون كلّ القضايا، ويعملون على المحافظة على تقليد قوميّ حيّ كان قد بدأ سابقاً في أعوام الانتداب البريطاني. وفي الواقع، فإنّ معلمي المدارس كتبوا أغلب كتب التاريخ الفلسطيني المهمّة في فترة الانتداب البريطاني.

إنه لمن الأهميّة بمكان أن يسأل معلّمو التاريخ الفلسطيني هذا السؤال: أي فلسطين ندرّس؟ وكيف؟ حاول المنهاج الفلسطيني الأول الذي اقترحه إبراهيم أبو لغد وزملاؤه في العام 1997، ثمّ سرعان ما أهملته السلطة الفلسطينية، أن يعالج هذه المسألة المهمّة. وقد قال علي الجرباوي (2001)، وهو عضو في الفريق وأستاذ في جامعة بيرزيت:

"ما هي فلسطين التي نعلّمها؟ هل هي فلسطين التاريخيّة بكامل جغرافيتها أم فلسطين التي هي نتاج الاتفاقات الموقّعة مع إسرائيل؟ هل إسرائيل هي مجرّد جار أم دولة أُقيمت على تدمير معظم فلسطين؟ قد يكون هذا هو السؤال الأصعب، لكن ينبغي ألّا تكون إجابته بتلك الصعوبة. يجب أن يكون المنهاج الجديد منجزاً فلسطينيّاً. وأن يعترف بوقائع الأمور دون تزوير الحقائق التاريخية وانعكاساتها على الأبعاد المختلفة في سياق تدريس العلوم الاجتماعيّة" (ص 454).

وقد خرجت اللجنة باقتراح مقاربة نقدية تشدّد على كيفية تعلّم الطلاب بدلاً من التركيز على تقديم سرديّات تقتضي حفظها غيباً وإعادة طرحها. (المغربي، 2004، مزاوي 2011).

إنّ تدريب معلمي التّاريخ وتشجيعهم على استخدام التاريخ الشفويّ في دروسهم، أمر جوهريّ تماماً من أجل تحقيق هذه المقاربة النقديّة. وتكتسي القدرَ ذاته من الأهميّة الحاجةُ إلى تشجيع المعلّمين على إنتاج موادّ بديلة وإمكانيّة توظيفها داخل غرفة الصف. يمكن وضع هذه المواد على موقع على الشبكة العنكبوتية وجعلها متاحة للمعلّمين في أيّ مكان. وهذا الأمر له أهميّته، ليس فقط من أجل سدّ الثغرات في المعرفة التاريخية، بل لأنّ لتدريس التاريخ الشفويّ قيمةً تربويّةً عظيمة، إذ من شأنه تعزيز التفكير النقدي والتحليل فضلاً عن مهارات الاتصال. كما أنه يشجّع على التفاعل الاجتماعي، ويساهم في إعادة إدماج المتقاعدين مرّة أخرى في المجتمع بطرق تمكّنهم من تقاسم معارفهم مع الآخرين، وهذا يخلق فرصاً جديدة للتعلّم والتبادل. إنّ هذه الممارسات تستخدم اليوم على نطاق واسع وبنجاح في جميع أنحاء العالم.

تاريخيّاً، كان مجتمع الطلاب الفلسطينيّين نشطاً إلى حدّ كبير على الصعيد السياسيّ. فمثلاً، كان الاتحاد العام لطلبة فلسطين الحاضنة لتطوّر منظمة التحرير الفلسطينية في أوائل الستينيات. وقد نظّم الطلاب إضرابات خلال سنوات الانتداب البريطاني للاحتجاج على السياسات المختلفة التي كان لها تأثير بالغ السوء على حياتهم. والشيء نفسه حدث خلال السنوات التي كانت فيها الضفة الغربية واقعة تحت حكم الأردن، ولاحقاً عندما وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي. فقد شهدت الانتفاضة الفلسطينية الأولى مستوى مرتفعاً من النشاط الطّلابيّ، غير أنّ هذا النشاط بدأ يتراجع في السنوات التي أعقبت اتفاقات أوسلو وصعود السلطة الفلسطينية. إذ أخذت هذه الأخيرة بتأسيس سيطرتها ورقابتها ليس فقط في المدارس، ولكن في الإعلام أيضاً. ثمّ بدأت السلطة الفلسطينية "تنظر إلى الأمور بوصفها دولة"، بتعبير جيمس سي سكوت (James C. Scott, 1998) الملائم، وهو أيضاً عنوان كتابه المهّم. ونتج عن ذلك إبعاد هذه الشريحة المهمّة من السكان الفلسطينيين عن السياسة. بوسعنا أن نتناقش حول ما إذا كانت هذه سياسة متعمدة أم نتيجة منطقيّة لتلك التطورات، لكنّ النتيجة النهائيّة، التي لا يمكن إنكارها، أفضت إلى انحدار على الصعيدين الاجتماعي والسياسي.

لا يمكن وصف حقبة ما بعد أوسلو إلا بكونها نكبة كبرى أخرى للشعب الفلسطينيّ، من بين نكبات عديدة. فقد أدّت تداعياتها المشؤومة إلى تشظٍّ كبير للشعب الفلسطيني، وظهور انقسامات عميقة في صفوفه. كان هنالك فشل عامّ على المستوى السياسي، زادت وتيرته بعد الانتفاضة الثانية الكارثيّة (2000) التي سرعان ما جرى تسليحها فأعطت إسرائيل الفرصة الذهبيّة لسحقها عبر الإسراف في القتل. والمفارقة هي أنّ هذا الفشل السياسي لم يؤدِّ إلى الاستسلام للإملاءات المفروضة من قبل إسرائيل والولايات المتحدة. وعلى نقيض أداء الطبقة السياسيّة الفلسطينية المثير

للشفقة، فإنّ المجتمع الفلسطيني بقي حيّاً ومعافى. إنّنا لنرى تطورات جديدة مهمة ستمكّن الفلسطينيين مع الوقت من تجاوز هذه الأزمة. وهذا يشمل، من بين أمور أخرى، نموّ حركة BDS (المقاطعة، سحب الاستثمارات، والعقوبات) التي حقّقت نتائج مذهلة على المستوى الدولي، وبخاصة حين اتجهت إسرائيل أكثر فأكثر نحو اليمين، وتجلّت كدولة فصل عنصري يتزايد التشكيك في شرعيّتها. ومن بين الملاحظات الأخرى المهمّة تفجر رائع لمواهب ثقافية في مجالات الفنّ والأدب والسينما والموسيقى، حظيت بمصداقية دوليّة، ونشرت صوتاً فلسطينياً جديداً وصل إلى جماهير متزايدة في جميع أنحاء العالم.

إنّ الفلسطينيّين في هذه المرحلة الحرجة من تاريخهم، مطالبون بأن يعيدوا تحديد الكيفية التي يواجهون بها الاستعمار الصهيوني الذي تحوّل إلى نظام فصل عنصري حقيقي. وهذا يعني أنّ النماذج القديمة التي سادت في الفكر والتحليل الفلسطينيّين على مدى عقود قد تجاوزها الزّمن. وتقتضي هذه المهمة الحيويّة إعادة ربط الناس بتاريخهم بصورة جديدة ومبتكرة، وبالتالي، صياغة إجماع جديد يعيد صياغة مشروع وطني للمقاومة والتحرّر. لقد فعلت شعوب أصليّة أخرى، مثل مواطني أمريكا الأصليين، هذا الأمر بنجاح. ويمكن لمشاريع التاريخ الشفوي جيّدة التنفيذ، أن تُستخدم أداةً رئيسية في عملية الإحياء التاريخيّة هذه. وفضلاً عمّا حدث في العام 1948، فإننا بحاجة لأن نعرف أكثر حول التجارب التاريخية المختلفة التي مرّ بها الفلسطينيون في رحلة المنافي: حكاية أولئك الذين قاتلوا في الأردن العام 1960، وانتهى الأمر بذبحهم العام 1970، حكاية من قاتلوا في لبنان، قصّة أولئك اللاجئين الذين قضوا سنوات في السجون الإسرائيليّة، وأولئك الذين قضوا سنوات في السجون العربية، قصّة اللاجئين في مخيّم نهر البارد في لبنان الذي عانى نكبة أخرى، أو أولئك اللاجئين في مخيم اليرموك بسوريا الذين عانوا نكبتهم الخاصّة أيضاً، قصّة من طردوا من العراق وقضوا سنوات في الصحراء، وقصة أولئك الذين عانوا سنوات من الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربيّة وقطاع غزة، وبعبارة أخرى، فإننا ملزمون بتسجيل قصة "الصمود" والبقاء لشعب وقع عليه ظلم عظيم في العام 1948 وما زال ضحيّة هذا الظلم حتى اليوم.

- أتقدّم بالشكر الخاص لأبي ريلي (Abby Riley) على جمعها ببليوغرافيا مشروحة ومفيدة حول التاريخ الشفويّ الفلسطيني، وللأستاذ أندريه مزواي (Andre Mazawi) من جامعة كولومبيا البريطانية لتعليقاته المفيدة على نسخة سابقة من هذه الورقة.

ترجمة: وليد السويركي

الهوامش

1 المقصود في هذا السياق فئران تجارب. أما الكابياء الخنزيرية (guinea pig)، فهي على عكس تسميتها ليست خنزيراً ولا غينية أيضاً، بل هي قارض موطنه الأصلي أمريكا الجنوبية، وسمي جنس الكابياء بخنزير غينيا فقط لأن له صوتاً يقارب صوت الخنازير البرية في غينيا. ويعرف أيضاً بهذه الأسماء: أرنب الجبل، الوبر، الكافي، أرنب رومي، أرنب هندي. ويستخدم خنزير غينيا في المختبرات لإجراء التجارب عليه، وبخاصة في مجال المساحيق والأدوية الجلدية، لأن تكوين بشرته مطابق لتكوين بشرة الإنسان (http://ar.wikipedia.org).

المراجع

قامت مساعدتي في البحث آبي ريلي (Abby Riley) بإكمال المسودة الأولية لببليوغرافيا مشروحة لمواد متوفّرة باللغة الإنجليزية حول التاريخ الشفوي الفلسطيني. لغرض هذه المقالة، قمت باستشارة الجهات التالية:

www.palestineremembered.com; www.nakbainhebrew.org; Rosemay Sayigh, Voices: Palestinian Women Narrate Displacement in www.almashriq.hiof.no/Palestine/300301//voices; Zochrot (www.nakbainhebrew.org); al-Jana: The Harvest (Beirut: Arab Resource Center for Popular Arts, 2002; Lynd, Straughton, Bahour, Sam and Lynd, Alice, *Homeland: Oral Histories of Palestine and Palestinians* (New York: Interlink Pub. Group, 1998; Rosemay Sayigh, "Palestinian Refugee Identity/ies: Generation, Region, Class," in Palestinian Refugees: Different Generations but One Identity (Birzeit University: Ibrahim Abu-Lughod Institute for International Relations, 2012; pps 1328-; Faiha Abdul Hadi, "Hanan Ghosheh: A Faithful Guardian of our Collective Memory," *Al-Ayyam*, 114/15/; Oral History Center, Islamic University of Gaza (Nakba-Archive.org)

- Abrams, Lynn, *Oral History Theory* (London: Routledge, 2010).
- Abu-Lughod, Ibrahim, *First Palestinian Curriculum Plan for General Education* (Ramallah: Center for Curriculum Development, 1997).
- Abu-Lughod, Lila, "My Father's Return to Palestine," *Jerusalem Quarterly*, Winter 2001, 11 - 12.
- Bashear, Suliman, *Judhur al-Wisaya al-Urduniyah* (Beirut: Sharikat Quds, 2001).
- Blumenthal, Max, *Goliath: Life and Loathing in Greater Israel* (New York: Nation Bks, 2013)

- Gluck, Sherna, "Oral History and al-Nakba," *Oral History Review* 55(1) 2008, 68 - 80.
- Halbwachs, Maurice, *On Collective Memory* (Chicago: University of Chicago Press, 1992).
- Jarbawi, Ali, Dalil al Muallim (A Reference Guide for Teachers), (Jerusalem: UNRWA Department of Education, 2001).
- Kark, Ruth, "Millenarianism and Agricultural Settlement in the Holy Land in the Nineteenth Century," *Journal of Historical Geography*, 1983, 47 - 62.
- Kark, Ruth, *American Consuls in the Holy Land* (Detroit: Wayne State University Press, 1994), p.23.
- Khalidi, Walid, *Struggle for Haifa and the Palestine Problem* (Beirut: Institute of Palestine Studies, 2010, in Arabic).
- Mannheim, Karl, "The Problem of Generations," in *Essays on the Sociology of Knowledge* (London: Routledge, Kegan Paul, 1952).
- Mazawi, Andre, "Which Palestine Should we Teach? Signatures, Palimpsests, and Struggles over Textbooks," *Studies in Philosophy of Education,* 2011, 169 - 183.
- Morris, Benny, *Israel's Border Wars* (Oxford University Press, 1997).
- Moughrabi, Fouad, "Educating for Citizenship in the New Palestine," in Banks, James, ed., *Diversity and Citizenship Education* (San Francisco: Josey-Bass, 2004), 407 - 432.
- Peri, Yoram, *Generals in the Cabinet Room* (Washington D.C.: U.S. Institute of Peace Press Books, 2006).
- Portelli, Alessandro, "What Makes Oral History Different," in Perks, Robert and Thomson, Alistair, *The Oral History Reader* (London: Routledge 1998)
- Sa'di, Ahmed and Abu-Lughod, Lila, *Nakba: Palestine 1948* (New York: Columbia University Press, 2007).
- Schuman, Howard and Scott, Jacqueline, "Generations and Collective Memories," *American Sociological Review* 54(3) 1989, 359 - 381.
- Scott, James C., *Seeing like a State* (New Haven: Yale University Press, 1998).
- Shlaim, Avi, *Collusion Across the Jordan* (New York: Columbia University Press, 1998).

من إحدى المقابلات مع المسنات لتوثيق التاريخ الشفوي، وذلك ضمن مسار مشروع التاريخ 2012 .